المحددات الفكرية للعلماء الإلهيين
قانون السببية والحتمية "أنموذجًا"

الباحث/ أحمد حسن إسماعيل علي

ملخص البحث:

ما زالت السببيَّة تثير الكثير من الإشكاليات على الصعيدين الوجودي (الأنطولوجي)، والمعرفي (الإبستيمولوجي)، مما أدى إلى ظهور مفارقات أثارت ضجة بين العلماء والفلاسفة وبخاصّة في بدايات القرن العشرين. وبوجه عام تعدُّ مشكلة السببيَّة –وما رافقها من قضايا كالحتمية، واللاحتميَّة–العمود الفقري، والمسألة الأم للعلم، وللفلسفة معاً، ويرى البعض أن مشكلة السببية بمفردها يمكن أن تلخص التاريخ البشري، فضبط هذا المبدأ كان ولايزال مهمًا جدًا للتقدم العلمي، واكتشاف أسباب الأحداث والنوازل، مما يعين على توفير العلاج، وتفادي أسباب نشوب الحروب، والفقر والمعاناة، وغيرها، وهذا الطموح لا يتحقق إلا بفهم جيد للعلاقة بين الأشياء، وتفكيك معنى كل من: السببية، والعلية، والحتمية.

القرآن يقرر العلاقات السببيَّة في الأمور العامة، فلا يوجد شيء إلا بوجود سببه، والآيات التي تنفي السببيَّة ظاهرياً، إنما تنفي ذاتية السببيَّة واستقلالها عن الله تعالى، فالعلاقات السببية جزء أساسي من بنية الكون في الأحوال العامة ولا يحصل المفارقة للسبب إلا نادراً حين تقع المعجزة، وحتى حينما يريد الله –سبحانه– أن تقع المعجزة فإن الله يجعل لها سبباً ولو شكلياً، ليتخذه من أكرمه الله بالمعجزة وأيده بها.

Research Summary:

Causality still raises many problems at the ontological and epistemological levels, which led to the emergence of paradoxes that caused a stir between scientists and philosophers, especially in the early twentieth century. In general, the problem of causality - and the accompanying issues such as determinism, and indeterminism - is the backbone, and the mother issue of science, and philosophy together, and some believe that the problem of causality alone can summarize human history, so adjusting this principle was and is still very important for scientific progress, and discovering the causes of events and calamities, which helps to provide treatment, and avoid the causes of wars, poverty, suffering, and others, and this ambition can only be achieved with a good understanding of the relationship between things, and dismantling the meaning of: Causality, attic, and determinism. The Qur'an decides causal relationships in public matters, there is nothing but the existence of its cause, and the verses that deny causality outwardly, but deny the subjectivity of causation and its independence from God Almighty, causal relationships are an essential part of the structure of the universe in general conditions and the paradox of the cause occurs only rarely when the miracle occurs, and even when God - Glory be to Him - wants the miracle to occur, He makes a reason for her, even if formal.

مقدمة:

تعدُّ مسألة السببيَّة ، من المسائل المهمة التي شغلت فكر كثير من الفلاسفة والعلماء منذ أقدم العصور، نظرًا لما تدركه حواسهم من التغير المستمر في ظواهر الكون، فلم يخلُ مذهب فلسفي أو نظرية علمية من اتخاذ موقف من هذه المسألة، ويعدُّ مبحث السببيَّة من المباحث المهمة التي انشغلت بها الفلسفة -وخاصة فلسفة العلم- ونظرًا لاهتمام الفلاسفة بمعرفة أصل الكون، وفهم التغيرات التي تطرأ على العالم، فقد بدأ فلاسفة اليونان في عصر ما قبل سقراط البحث في نشأة الكون وتغيراته، وكذلك في عهد أرسطو والفلاسفة والعلماء يخوضون في أمر السببية فيدرسها الفلاسفة من جانب نظري مجرد، والعلماء من منظور مادي بحت، فوجهات النظر حول متعددة؛ ففريق يرى وجود انتظام بين العلة والمعلول، وفريقٌ يرى خلاف ذلك.

وما زالت السببيَّة تثير الكثير من الإشكاليات على الصعيدين الوجودي (الأنطولوجي)، والمعرفي (الإبستيمولوجي)، مما أدى إلى ظهور مفارقات أثارت ضجة بين العلماء والفلاسفة وبخاصّة في بدايات القرن العشرين. وبوجه عام تعدُّ مشكلة السببيَّة وما رافقها من قضايا كالحتمية، واللاحتميَّة، العمود الفقري، والمسألة الأم للعلم، والفلسفة معاً[١]، ويرى البعض أن مشكلة السببية بمفردها يمكن أن تلخص التاريخ البشري كله[٢].

ورغم بساطة البحث فيها وبداهته، إلا أن تطوير نظرية السببية ضروري جدًا؛ وذلك لما يقع من تداخل بين المصطلحات (العلية والسببية والحتمية) ومدلولاتها، فضبط هذا المبدأ كان ولايزال مهمًا جدًا للتقدم العلمي، واكتشاف أسباب الأحداث والنوازل، مما يعين على توفير العلاج، وتفادي أسباب نشوب الحروب، والفقر والمعاناة، وغيرها، وهذا الطموح لا يتحقق إلا بفهم جيد للعلاقة بين الأشياء، وتفكيك معنى كل من: السببية، والعلية، والحتمية.

١-السَّبَبية Causality:

نسبة إلى السبب، وتعني افتقار الحوادث إلى أسباب، قال الرازي : والسَّبَبُ هو الحبل وكل شيء يتوصل به إلى غيره وأسْبَابُ السماء نواحيها"[٣]، وقال التهانوي: "السَّبَب في اللغة الحَبْل. وفي الشريعة عبارة عمَّا يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه"[٤].

(١) ينظر: الخولي، يمنى ، العلم والاغتراب والحرية، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ٢٠١٩، ص ٤٨

(٢) بلكا، إلياس، الوجود بين السببية والنظام دراسة في الأساس الشرعي والفلسفي لاستشراف المستقبل، الولايات المتحدة الأمريكية- فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٢٩-٢٠٠٩م، ص ١٣.

(٣) الرازي، مختار الصحاح، ص٢٨١.

(٤) التهانوي، محمد بن علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق/علي دحروج، دار لبنان ناشرون، ١٩٩٦، ج١، ص٩٢٤.

وفي لسان العرب: " السَّبَبُ: كلُّ شيءٍ يُتَوَصَّلُ به إلى غيره؛ وفي نُسْخة: كلُّ شيءٍ يُتَوَسَّل به إلى شيءٍ غيرِه، وقد تَسَبَّبَ إليه، والجمعُ أَسْبابٌ؛ وكلُّ شيءٍ يُتَوصّلُ به إلى الشيءِ، فهو سَبَبٌ. وجَعَلْتُ فُلاناً لي سَبَباً إلى فُلان في حاجَتي وَوَدَجاً أَي وُصْلَة وذَرِيعَة"(١).

وعرفه الشريف الجرجاني في اللغة بأنه: اسم لما يتوصل به إلى المقصود، وفي الشريعة: عبارة عمَّا يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه. والسبب التام: هو الذي يوجد المُسبَّب بوجوده فقط. والسبب غير التام: هو الذي يتوقف وجود المُسبَّب عليه، لكن لا يوجد المسبب بوجوده فقط"(٢).

وقال الغزالي:" واعلم أن اسم السبب مشترك في اصطلاح الفقهاء، وأصل اشتقاقه من الطريق ومن الحبل الذي به ينزح الماء من البئر، وحده ما يحصل الشيء عنده لا به، فإن الوصول بالسير لا بالطريق ولكن لا بد من الطريق، ونزح الماء بالاستقاء لا بالحبل ولكن لا بد من الحبل، فاستعار الفقهاء لفظ السبب من هذا الموضع"(٣).

يتبين من هذا أن السبب في اللغة هو الشيء الذي يتوصل به إلى غيره. ويبدو أن المعاني التي استخدم فيها هذا المفهوم من قبل الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين تدور حول هذا القصد، باعتبار أن السبب لديهم هو ما يترتب عليه مُسبَّب في العقل أو الواقع، فالمقدمات الصادقة هي سبب صدق النتيجة، وكذلك بعض الظواهر الطبيعية هي سبب لظواهر أخرى.

والسبب في اصطلاح المناطقة والأصوليين: ما يلزم من وجوده وجود غيره، فالأول السبب، والتالي المُسبَّب أو النتيجة، والعلاقة بينهما هي "السببية".

وقد يطلق على معنى "السببية" لفظة "العِلِّيَّة"، نسبة إلى العلة، كما نسبت السببية إلى "السبب".

٢-العلَّية Etiology (٤)

استناد وقوع الشيء إلى علَّة، والعلة بالكسر وتشديد اللام في اللغة اسم لعارض يتغير به وصف المحل بحلوله، وبالضرورة لا عن اختيار، ولهذا سمي المرض علة، لأنه بحلوله

(١) بن منظور، جمال الدين ابي الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب، تحقيق: عامر احمد حيدر ومراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار صادر٢٠٠٣، ص ٢٧٦.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، لبنان– بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ص ١١٧.

(٣) أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم أصول الدين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧، ص١٢٤.

(٤) اخترت هذه الترجمة من بين مفردتين للتمييز بينها وبين السببية، فكل ما وقفت عليه من القواميس والمعاجم تترجم السببية والعلية بنفس المفردة (CAUSALITY)، وترجمها القليل (ETIOLOGY).

يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف. وقيل هي مستعملة فيما يؤثر في أمر سواء كان المؤثر صفةً أو ذاتاً"[١].

ومن معاني العلة التي وردت في لسان العرب: المرض، علَّ يعِلُّ، واعتلَّ أي: مرض"[٢]، وقال الجرجاني "العلة لغةً: عبارة عن معنى يحل بالمحل فيتغير به حال المحل بلا اختيار، ومنه يسمى المرض، علة، لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف، وقيل: هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه"[٣].

وقال أبو البقاء: كل وصف حل بمحل وتغير به حاله معا فهو علة، وصار المحل معلولا، كالجرح مع المجروح وغير ذلك، وبعبارة أخرى: كل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بواسطة انضمام الغير اليه فهو علة لذلك الأمر، والأمر معلول له فتعقل كل واحد منهما بالقياس إلى تعقل الآخر وهي فاعلية، ومادية، وصورية، وغائية[٤].

الفرق بين السَّبَب والعلَّة:

خلط الكثير من المؤلفين والمفكرين بين لفظي "السبب" و "العلة". وهذا أمر يمكن ان يُلاحَظَ حتى لدى بعض كتاب المعاجم الفلسفية، فقد جاء في المعجم الفلسفي "أن العليَّة هي السببيَّة، وتطلق على العلاقة بين العلة والمعلول"[٥].

ولدى بعض المتكلمين وفلاسفة الإسلام الأوائل الذين فضَّلوا استخدام لفظ "علة" كالفلاسفة المشائين الذين جاؤوا قبل ابن رشد ومن حذا حذوهم من الفلاسفة المحدثين. بينما نجد أن معظم المتكلمين بالإضافة إلى ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) ومحيي الدين بن عربي (ت ٦٣١هـ) آثروا استخدام لفظ "سبب"[٦].

بيد أنه بالنظر في التعريف اللغوي لكل من العلة والسبب، يتبين أن هناك فارقاً بين المعنيين اللغويين، وقد أكّد هذا الإمام الأصولي بدر الدين الزركشي بقوله: "أما اللغوي فقال أهل اللغة: السبب ما يُتوصل به إلى غيره ولو بوسائط، ومنه سُمّي الحبل سبباً، وذكروا للعلة معاني يدور القدر المشترك فيها على أنها تكون أمراً مستمداً من أمر آخر، وأمراً مؤثراً في آخر. إذن هناك فرق بين السبب والعلة من حيث اللغة، وإن علماء اللغة والنحو استعملوهما في مصطلحين متغايرين.

---

(١) الغزالي: المستصفى، مرجع سابق: نفس الصفحة

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٤١٢.

(٣) الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٤) أبو البقاء الحنفي، أيوب بن موسى الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لبنان- بيروت، مؤسسة الرسالة، دت، ص ٥٩٨.

(٥) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢، ص٩٨.

(٦) العراقي، محمد عاطف ، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦(ط٣)، ص٤٩.

ومن مفكري الإسلام من فرّق بين السبب والعلة، قال ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ) في كتابه "الهوامل والشوامل" : "إن السبب هو الأمر الداعي للفعل، ولأجله يفعل الفاعل، بينما العلة فهي الفاعلة بعينها، لهذا صار السبب اشد اختصاصا بالأشياء العرضية، وصارت العلة اشد اختصاصا بالأمور الجوهرية"(١).

أما الدراسات الفلسفية الحديثة التي تناولت مسألة السببيَّة، فمعظمها لا يفرق في الاستخدام بين لفظتي "السبب" و"العلة"، فأحيانا يستخدم الدارسون والباحثون لفظة "علة"، وأحيانا يستخدمون لفظة "سبب" –على ما يتداخل بين السببية والحتمية كما سيأتي بيانه بإذن الله– فيقول عبد السلام بن ميس في مقدمة دراسته لمشكلة السببيَّة: "يشير مصطلح السببيَّة إلى العلاقة الحاصلة بين السبب والنتيجة. وتستعمل كلمتا "سببية" و"علية" في اللغة العربية بمعنى واحد" (٢)، وقال البوطي في معرض حديثه عن مشكلة السببيَّة: "لا نريد أن نفرق بين العلة والسبب، إذ هما فيما نقصد إليه في هذا البحث سواء"(٣) .

ولعل عدم التمييز بين لفظتي "سبب" "وعلة" في الاستخدام، ناشئ عن الخلط الذي يشيع في كتابات الدارسين لهذه المشكلة من الفلاسفة المسلمين أو المتكلمين؛ حيث نجد بعضهم يستخدم لفظة "علة" والبعض الآخر يستخدم لفظة "سبب"، ونجد الغالبية العظمى يستخدمون لفظتي "سبب"، و"علة" بشكل مترادف، وربما صرح بعضهم –كابن رشد– بأن السبب والعلة يدلان على معنى واحد، وسوى كذلك بين العلة والسبب في تقسيم أرسطو المعهود : إلى المادة والصورة والفعل والغاية(٤).

وهذه الدراسة سوف تساير العرف السائد باعتبار الترادف بين المصطلحين، وتستخدم مصطلح "السببيَّة" للدلالة على أي منهما، لأسباب منها:

– أن لفظة "سبب" وردت في القران الكريم في مواضع عديدة، بينما لفظة "علة" لم ترد في القرآن على الإطلاق، ويكاد يجمع المفسرون على أن لفظة السبب التي وردت في القرآن الكريم تعني الواسطة والوسيلة.

– ومنها: إمكانية الجمع بينهما بإدراج العلة تحت اسم السبب، من باب: أن السببية والعلية بينهما عموم وخصوص، فالسبب أعم، والعلة أخص، وعل سبيل المثال فإنه: إذا

(١) بن مسكويه، احمد بن محمد ، الهوامل والشوامل: سؤالات أبو حيان التوحيدي لأبي على مسكويّه، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، ص ٣٠.

(٢) عبد السلام بن ميس، السببية في الفيزياء الكلاسيكية والنسبانية: دراسة إبستمولوجية، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٤، ص١٨.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكبرى. دمشق، دار الفكر، ١٩٩٧، ص٢٨٦.

(٤) ينظر: العراقي، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، مرجع سابق، ص ٤٩

كان السبب ينقسم إلى تام وغير تام [١]، فالعلة من السبب التام، وهو الذي يوجد المُسبَّب بمجرد وجود سببه.

– ومن وجه آخر فالسبب إذا كان فاعلاً مباشرًا فقد اتفق في المعنى مع العلة، وإلا بقي على عموم التسمية.

ويتضح من تعريفات السبب والعلة: أن السبب هو الأمر الداعي للفعل، ولأجله يفعل الفاعل، بينما العلة هي الفاعلة بعينها، ولذا فقد أشار ابن مسكويه إلى أن السبب صار أشدَ اختصاصا بالأشياء العرضية، وصارت العلة أشدَّ اختصاصا بالأمور الجوهرية [٢].

ولعله يزداد وضوحًا بملاحظةِ تعريف السبب في اللغة، حيث لا يُسَمَّى الحبلُ سبباً حتى يكونَ طَرَفُه مُعَلَّقاً بالسَّقْفِ أو نحوِه، وهو في الأصل ما يتوصل به إلى استعلاء، بينما العلة "في اللغة اسم لعارض يتغير به وصف المحلول بحلوله، وبالضرورة لا عن اختيار، ومنه سمي المرض علة، وذكروا للعلة أيضاً معاني يدور القدر المشترك فيها على أنها تكون أمراً مستمداً من أمر آخر، وأمراً مؤثراً في آخر. وهذا يعني أن العلة لها فاعلية وجودية، فاعلية إحداث المعلول وبالضرورة لا عن اختيار[٣].

وهذا هو سبب ترجيح الأصوليين استخدام مصطلح "السببية" في مقابل "العلية"؛ لأن السبب –عندهم– ما يحصل الشيء عنده لا به، والعلة ما يحصل به". وهذا يفيد عدم الضرورة بين السبب والمُسبَّب، ووجود الضرورة بين المعلول والعلة. ويقولون "بأن المعلول متأخر عن العلة بلا واسطة، ولا شرط يتوقف الحكم على وجوده، والسبب إنما يقتضي الحكم بواسطة أو بوسائط، ولذلك يتراخى الحكم عنها حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع، وأما العلة فلا يتراخى الحكم عنها إذا اشترط لها بل هي أوجبت معلولاً بالاتفاق"[٤]، وهذا يوحي بحتمية تأثير العلة في المعلول في علاقة (العليَّة)، ولاحتميَّة تأثير السبب في المسبب في علاقة (السببيَّة).

٣– الحتمية Determinism

هو المصطلح الأكثر تداولًا في عصرنا للدلالة على العلاقات السببية، بيد أنه جديد كمصطلحٍ فنيٍّ على اللسان العربي، لم يدخل العربية إلا بعد انفتاح على الحضارة

(١) قال الجرجاني: السبب التام: هو الذي يوجد المسبب بوجوده فقط، والسبب الغير التام: هو الذي يتوقف وجود المسبب عليه، لكن لا يوجد المسبب بوجوده فقط [التعريفات: ص ١١٧].

(٢) ابن مسكويّه، الهوامل، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٣) ينظر: المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، محمد باسل الطائي وآخران، مفهوم السببيّة في الفيزياء المعاصرة وعند المتكلمين المسلمين، الأردن، ، ١٤٣٣هـ /٢٠١٢م، مجلد ٨، عدد ٢أ.

(٤) بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، البحر المحيط، الكويت، مطبعة وزارة الشؤون الإسلامية الكويتية، ١٩٩٢، ج٦، ص٣٦٩.

الغربية في النهضة الحديثة، وإنما كانت العناية في الثقافة الإسلامية وقتئذ بالجبرية مقابل القدرية وليس بالحتمية مقابل اللاحتمية[١].

ويعني وجوب وقوع الحدث حالما تتوفر شروطه، كسقوط الحجر نحو الأرض حال تركه حراً.

ومعنى الحتمية: من الحتم، حتم بكذا حتما، قضى وحكم، وحتم اللّه الأمر: قضاه، وحتم الأمر أحكمه، وحتم عليه الأمر: أوجبه، فالحتم القضاء، أو إيجاب القضاء، أو اللازم الواجب الذي لا بدّ من فعله، وفي التنزيل الحكيم: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[سورة مريم:٧١][٢].

وأما عن الحتمية كاصطلاح فلسفي فهي: القول بأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة مقيدة بشروط توجب حدوثها اضطرارا، أو هي مجموع الشروط الضرورية لحدوث احدى الظواهر، أو هي القول بوجود علاقات ضرورية ثابتة في الطبيعة توجب أن تكون كل ظاهرة من ظواهرها مشروطة بما يتقدمها أو يصحبها من الظواهر الأخرى، فإذا وجدت الأسباب، وجدت النتائج، فلا تتخلف ولا تتأخر، وإذا لم توجد الأسباب استحال وجود النتائج.

وفي المعجم الفلسفي: لحتمية بالمعنى المجرد هي أن يكون للحوادث نظام معقول تترتب فيه العناصر على صورة يكون كل منها متعلقا بغيره، حتى إذا عرفت ارتباط كل عنصر بغيره من العناصر أمكن التنبؤ به، أو احداثه، أو رفعه، ... إذا تحققت الشروط نفسها في زمانين أو مكانين مختلفين، حدثت الظواهر نفسها مجددا في زمان ومكان جديدين.[٣] .

والحتمية العلمية: مبدأ يفيد عمومية القوانين الطبيعية، وثبوتها واطرادها، فلا تخلف ولا مصادفة ويقوم على مجموعة الشرائط الضرورية لتحديد ظاهرة ما، فكل شيء في الوجود يرد إلى العلة والمعلول [٤]، ويقتضي هذا المبدأ: أن كل ما في الطبيعة ضروري، وأن كل ما يحدث لابد أن يحدث، ويستحيل أن يحدث سواه [٥].

لقد قدمت الحتمية للعلوم إمكانية التنبؤ بالأحداث والظواهر، كما أن التنبؤات واطراد تحققها تدلان على حتمية نتائج العلم وثباتها، وهذا هو الذي أخذت به العلوم الكلاسيكية،

(١) ينظر: الخولي، يمنى طريف، العلم والاغتراب والحرية، مرجع سابق، ص ٥٤

(٢) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج١ص٤٤٣.

(٣) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج١ص٤٤٣.

(٤) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، مصر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣، ص٦٧.

(٥) الخولي، يمنى طريف، العلم والاغتراب والحرية، مرجع سابق، ص ٥٤.

وقد بدا هذا جليًّا في الحقبة العلمية الإسلامية، وفي عصر النهضة الأوروبية؛ إذ كان القول بالحتمية ضروري لتعميم نتائج الاستقراء العلمي، فلولا الاعتقاد أن ظواهر الطبيعة تجري وفق نظام كلي دائم، لما أمكن تعميم نتائج الاستقراء، ولا أن نحكم على البعيد بما نحكم به على القريب.

ولقد كان لمبدأ الحتمية عظيم الأثر في فهم نظام الكون وتقديم صورة أكثر وضوحًا له في العصر الكلاسيكي للعلم، فالحتمية الفيزيائية كانت (من أهم التوابع الفلسفية للثورة العلمية التي أنهت ظلام العصور الوسطى في أوروبا، فقد ثبت أن العالم المادي الكبير عالمٌ منضبط، يلتزم في سلوكه بالقوانين الفيزيائية)[١]، فكفلت الحتمية للحركة العلمية آنذاك تقديم تنبؤات صحيحة، فتمكن العلماء من البناء على المكتشفات العلمية تباعًا، والاعتماد عليها لإحداث ثورة علمية كبرى، والعمل على تطوير النسق الفيزيائي مع مرور الزمان، وعلى فرض وقوع خطإٍ ما، فإن اللاحق يقدم تصحيحًا على السابق بشرطٍ ضمنيٍّ: هو أن يقدم شيئًا يمكنه التنبؤ بمستقبل المعرفيِّ، ليكون صالحًا للرَّصد للتجريب وملاحظة اطراده.

وتلك هي النظرة التي ورثها العلم من الفيزياء النيوتونية التي تعتبر أن العلم والتنبؤ وجهان لعملة واحدة، وأنه يمكن لنا أن نتنبأ –بدقة كاملة– بتطور نسق فيزيائي في الزمان، انطلاقًا من ظروفه الأولية، وبتطبيق هذا النسق[٢].

السببية والحتمية من منظور فلسفي:

يُعد مبدأ السببية من أهم القضايا التي عنى بها الفلاسفة، لأنه من البدهيات التي يرتكز عليها العقل في فهم الطبيعة وتنظيمها؛ فالسببية أحد المبادئ العقلية الضرورية، التي تعرف بالضرورة من غير استدلال، أو ما تُسمى بالمبادئ الفطرية الأولية التي لا تحتاج إلى دليل، بل تكون مركوزةً في الفِطَر، يوقن بها الصغير والكبير، من غير اكتساب أو تقليد أو استدلال، فلا يبرهن أو يُستدل لها، ولكن يُستدلُ بها، وتسمى أيضًا: قوانين الفكر، ويرجع الدكتور النشار صياغة تلك القوانين إلى أرسطو، ثم أخذها عنه الفلاسفة المسلمون، وأما الصيغة الجبرية لها فيردها إلى ليبينتز[٣].

يقول ليبنتز: (الحقائق الضرورية والأبدية هي المبادئ الأولى للمعرفة العقلية، وهي مفطورة فينا، بل تقوم عليها طبيعتنا الإنسانية، كما تقوم عليها طبيعة العالم الذي نتمثَّله

(١) شريف، عمرو، الإلحاد مشكلة نفسية، القاهرة، نيو بوك، ص٣٦٦.

(٢) بلكا، إلياس، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٣) النشار، علي سامي، المنطق الصوري: منذ ارسطو حتى عصورنا الحاضرة، مصر –الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط٥، ١٩٦٦، ص ٧٨.

بحكم ماهيتنا. ولهذا كانت المعرفة بهذه الحقائق مرادفة للمعرفة بأنفسنا، وبالله الذي هو العلَّة الغائية الأخيرة لجميع الكائنات ... الحقائق فطرية فينا)[١].

وهذه المبادئ هي:

١- مبدأ الهوية أو الذاتية: ويعني أن الشيء يبقى هو هو نفسَه، وليس غيرَه، فلا يتغير ولا يتبدل، فقولنا أن الذي أمامنا هو إنسان، يلزم منه بالضرورة أنه ليس حصاناً، وبالتعبير الرياضي: فالشيء إما هو (أ) أو ليس (أ)، وبصيغة أخرى: (أ) ليس (ب).

٢- مبدأ عدم التناقض: ويعني أن النقيضين لا يجتمعان في الشيء الواحد؛ فلا يصدُق على الشيء الواحد- مثلًا- أنه موجود وغير موجود في الوقت نفسه، وبصيغة رياضية: (أ) ليس (ب) و(لا ب) في نفس الوقت.

٣- مبدأ الثالث المرفوع: وهو المقابل للمبدأ السابق، والمكمل له، فمعناه: أن الشيء لابد أن يتصف بأحد النقيضين، فلا يرتفعان عن الشيء في ذات الوقت، بل لابد أن يصدق عليه أحدهما، ومثاله: أن الطالب إما أن يتصف فبالنجاح أو الرسوب، فهو إما (ناجح)، وإما (راسب) والثالث ممتنع، ولذا فإن البعض يسمي هذا المبدأ: الوسط الممتنع، او الوسط المُستبعد[٢].

٤- مبدأ السببية أو العلية: الذي يقضي بأن لكل شيءٍ سببًا، ولكل معلول علة، ولكل مصنوع صانعًا، ولكل حدثٍ سببًا كافيًا لحدوثه [٣].

يرد ليبينتز هذه المبادئ إلى مبدأين: عدم التناقض، والسببية، فيقول: "تقوم معرفتنا العقلية على مبدأين كبيرين؛ مبدأ عدم التناقض، وبفضله نحكم بالكذب على كل ما ينطوي على تناقض، وبالصدق على ما يضاد الكذب أو يناقضه كما تقوم على مبدأ السبب الكافي، وبه نُسلِّم بأنه لا يُمكن التثبت من صدق واقعة أو وجودها، ولا التثبت من صحة عبارة بغير أن يكون ثمة سبب كافٍ يجعلها على هذا النحو دون غيره، وإن تعذر علينا في أغلب الأحوال أن نتوصَّل إلى معرفة هذه الأسباب"[٤] .

والتقسيم العقلي الدارج للعلل والأسباب -منذ أرسطو- يجعل العلل أربعة: الصورية والمادية والفاعلة والغائية، فالعلية تتجه بالذهن تجاه أي حدث أو موجود لإدراك عللة الأربع، فالسرير الخشبي ترتسم في الذهن صورته المعهودة (العلة الصورية)، وكذا

(١) ليبينتز، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) النشار، علي سامي، مرجع سابق، ص ٧٨

(٣) ينظر في هذا وسابقيه: النشار، علي سامي، المنطق الصوري، مرجع سابق، ص ٧٨، وأيضًا:ابن النفيس، علاء الدين (٦٨٧هـ)، شرح الوريقات في المنطق، تحقيق/أحمد فريد المزيدي ص٧.

(٤) ليبينتز، مرجع سابق نفس الصفحة.

الخشب الذي يُصنع منه (العلة المادية)، والنجار الذي صنعه (العلة الفاعلة)، والنوم والاسترخاء الذي صُنع من أجله (العلة الغائية).

والذي يهمنا من هؤلاء الأربع: العلة الفاعلة والعلة الغائية، أو السبب الفاعل والسبب الغائي، وحيث إنه من المقرر عقلًا أن كلَّ حادث لا بدّ له من مُحْدِث أحدثه، وأن وراء كل ظاهرة تحدث سبباً فاعلاً، وان الحوادث تتابع أو تتساوق في سلسلة يرتبط فيها السابق باللاحق وذلك هو مبدأ السببيَّة بمعناه العام[٢١]، وهو الذي يقدم التفسير المقبول للدهشة التي تعتري الإنسان عندما تقع ظاهرة طبيعية لا يعرف سببها، وكذلك يُفسِّر سعي البشرية الحثيث في البحث عن الأسباب حتى في مرحلة التفكير البدائية، بدلًا عن عزو الظواهر إلى قوى خفية كالشياطين والسحر، أو وهمية كالتفسيرات التي تقدمها الخرافات والأساطير.

فلابد للعقول المتشوقة للفهم، والراغبة أن ترقى درج العلم، أن تدرك أن العلم في جملته هو "المعرفة بالأسباب" فالعلم والسببية –من هذا المنطلق– وجهان لعملة واحدة، وفي هذا يقول الأستاذ/ فؤاد زكريا ": إن "معرفة أسباب الظواهر هي التي تمكننا من أن نتحكم فيها على نحو أفضل، ونصل إلى نتائج عملية أنجح بكثير من تلك التي نصل إليها بالخبرة والممارسة (...) فالمعرفة العلمية الحقيقية مرتبطةٌ بالبحث عن أسباب الظواهر"[١]

السببية والحتمية في عصر النهضة:

وقد اتصف العلماء الإلهيين باعتمادها السببية، وانطلاقهم منها، ومنهم من قال بحتمية الأسباب، ومنهم من قال باحتماليتها، لكن أحدًا منهم لم ينكر قيمة الأسباب، وانطلقوا جميعًا من قاعدتين:

١– أن لكل حدث سبب فاعلًا، وعلةً أحدثته.

٢– أن لكل موجودٍ غاية يسير إليها، ووجد من أجلها.

ومن صور قيام الفيزياء الكلاسيكية على مبدأ السببية الميكانيكية التي تحكم العالم، أن فيزياء جاليليو جاليلي (١٥٦٤–١٦٤٢م) تنطلق من فكرة أساسية مفادها أنّ الطبيعة عبارة عن آلة محكمة التنظيم بفضل القوانين التي تحكمها، وقد بُنيَ عليها تصوّر جاليليو للحركة ومبدأ العطالة الذي يقوم بالدرجة الأولى على أُسس سببية بحتة، وكانت هذه

(٢١) ينظر: حسام الدين الآلوسي، مدخل إلى الفلسفة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.

(١) زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، الكويت : عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص ٣١.

بمثابة ثورة عظيمة، عملت على تخليص المعرفة العلمية من شوائب الميتافيزيقا، فهي ضدّ التصوّر الميتافيزيقي للكون والحركة، وقدمت فيزياء تؤدي فيها الأسباب إلى الوصول إلى النتائج بالضرورة أو الحتمية السببية [١].

وقد أَيّد رينيه ديكارت (١٥٩٦–١٦٥٠) التصوّر الميكانيكي السببي لجاليليو، وأقرَّ بتبنيه للتفسير الميكانيكي الجاليلي، واعتبره الطريقة المُثلى لبلوغ الحقيقة، ذلك أنّ جاليلي حاول تجنب أخطاء الفلاسفة السيكولائيين، وعمل على فحص الموضوعات الفيزيائية رياضيًا؛ إذ يعلن ديكارت في الرسالة نفسها عن اتفاقه مع جاليلي[٢] .

أكد جاليليو أن الطبيعة ليس فيها عقل. وهذا يعني أنها ليست من الكائن العضوي في شيء بل هي آلة عملياتها وتغيراتها ليست بسبب علل نهائية أو غائية، بل فقط بسبب العلة الكافية المؤدية إلى حدوث الحدث التالي لها. على هذا النحو اكتمل في ذهن جاليليو التصور الحتمي الميكانيكي للكون المقترن بالعلم الحديث [٣].

بينما تعامل جاليليو مع الحركة وفقًا لتلك الشروط، كان إنجاز نيوتن العظيم هو صياغة فئة من المبادئ تنطبق على أية حركة مهما كانت، وبصرف النظر عما إذا كان سببها الجاذبية أو الكهربية أو أي نوع آخر من القوة، فقط احتاج نيوتن إلى توضيح أفكار معينة عن الزمان والمكان والحركة تركها جاليليو غامضة [٤].

قد فسر إسحاق نيوتن[٥] (١٦٤٢–١٧٢٧) دوران القمر حول الأرض ودوران الكواكب حول الشمس، بسبب وجود هذه القوة، دون أن يكون لديه برهان عملي لإثبات وجود الجاذبية بالفعل في الشمس أو الكواكب. فها هنا نحن أمام تعميم لسببية طبيعية وقانون سببي يفترض أنه طبيعي. وبموجب هذا التعميم تمكن نيوتن من تحقيق قوانين كبلر لحركات الكواكب السيارة حول الشمس نظرياً، بعد أن كان كبلر قد اكتشف هذه القوانين نفسها من نتائج الأرصاد العملية التي قام بها تايكو براهي على مدى عشرين سنة[٢٣].

ولم يكن قول علماء النهضة الأوروبية بالحتمية ليقضي على دور الإله في الكون، فإن نيوتن قد احتفظ في تصوره لدور الإله في منظومة الكون، وأنه قد وضع قوانينه، وألزم بها الموجودات، وبقي دوره ليتدخل حينما يشاء للتعديل المباشر وقت اللزوم، حتى أطلق

(١) ينظر: البازي، بلال، مفهوما السببية والحتمية بين ابن رشد واسبينوزا، دورية تبين للدراسات الفكرية والثقافية، الدوحة–قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٣٢، ٢٠٢٠م، ص ٣٩

(٢) السابق، نفس الصفحة.

(٣) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤، صفحة ٧٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٥) ستأتي ترجمته في الفصل التالي بإذن الله.

(٢٣) الطائي، محمد باسل، مدخل إلى علم الفلك، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٣.

على موقف نيوتن: (حتمية نيوتن المؤمنة)[١]، ولا شك أنه لم يقل بذلك وحده، بل قال به أكثر العلماء المؤمنين.

إذن فالحتمية في تصور نيوتن لا تمانع أن تخرقها القدرة الإلهية، وبناء عليها صاغ نيوتن تصوره مستنتجًا ضرورة تدخل إلهيٍّ دوريٍّ لضمان استقرار النظام الشمسي.

والذي يهم ههنا أمران:

الأول: بيان اعتمادهم مبدأ السببية في فهم آلية عمل الكون، والثاني: القول بحتمية السبب، وأنه كان نابعًا من اضطراد التأثير، وكان بمثابة الأرض الصلبة التي وقفوا عليها.

كما أن العصر الوسيط قد شهد أيضًا نوعًا آخر من الحتمية، والتي عرفت بالحتمية المطلقة، لا يتخلف فيها المعلول عن علته، ولا النتيجة عن سببها، وإذا وجدت نفس الأسباب في أي مكان أو زمان فإنها تؤدي إلى نفس النتائج، ومن ثم فليس اليوم إلا نتيجة حتمية لأسباب الأمس، وما الغد إلا نتيجة لليوم، ولا يمكن أن تتغير ولو بقدرة الإله، وقد عرفت –فيما بعد– بـ "حتمية لابلاس المطلقة"[٢]، وبحسب هذا المذهب الحتمي فإن الإلمام بأحداث وظواهر الماضي كفيل بتنبؤنا بما سيكون عليه المستقبل.

وتُنسب الحتمية المطلقة إلى بيير لابلاس[٣]، لأنه هو الذي أبرزها وصاغ مبدأها معتمدًا على قوانين نيوتن مع الاستغناء عن نظرية التدخل الإلهي، حيث لم يرَ له دورًا في الكون، مع ثبات قوانين الطبيعة وحتميتها! فقال: " لو أن كائناً ذكياً قادراً على معرفة جميع القوى المحركة للعالم في لحظة ما، وجميع المواضع التي فيها الأشياء التي تؤلف هذا العالم، أخضع هذه المعلومات للتحليل فإنه سيجمع في صيغة واحدة حركة أعظم الأجرام وأصغر الذرات في هذا العالم. ولمثل هذا الكائن لا شيء يكون غير مؤكد أبداً، بل سيكون المستقبل مثل الماضي حاضراً عنده" [٤].

السببية في الفكر الإسلاميَ :

القرآن الكريم هو المرجع الأول للمسلمين جاء كتاب هداية، فيه آيات بيّنات وجملة شاملة من الأفهام، صاغها مُنزلةً، جلَّ شأنه، بأسلوب لا يتقيد بحرفية العلم العقلي ولا بأسلوب التعبير الفلسفي، جاءت تعابيره بلسان عربي مبين يستهدف دوماً التأكيد على أن الله هو

(١) ينظر: شريف، د/عمرو، الإلحاد مشكلة نفسية، مرجع سابق،٣٦٧.

(٢) السابق

(٣) بيير سيمون لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧): عالم رياضيات، فيزيائيٌ وعالم فلك فرنسي قام بدراساتٍ شهيرة بما فيها ثبات النظام الشمسي، واشتُهر بلقب نيوتن الفرنسي.

(٤) PIERRE SIMON, LAPLACE, A PHILOSOPHICAL ESSAY ON PROBABILITIES, TRANSLATED FROM THE 6TH FRENCH EDITION BY FREDERICK WILSON TRUSCOTT AND FREDERICK LINCOLN EMORY, DOVER PUBLICATIONS NEW YORK, ١٩٥١.

الخالق المهيمن القادر الفعّال لما يريد. فالله هو مُنزل الغيث من السماء وهو المُحيي وهو المُميت وهو الشافي حين المرض. كما جاء القرآن ليؤكد من جانب آخر أن لله سبحانه سنة شاملة ثابتة في العالم، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. فهذان الأمران هما مرتكز الموقف السببي في القرآن.

وردت لفظة "سبب" صراحة في القران الكريم في ثمانية مواضع؛ في جميعها جاء "السبب" ليعني كلمة السُبل والوسائط؛ قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب﴾ [البقرة:١٦٦]، ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأسباب﴾ [ص:١٠]؛ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسباب* أَسْبَابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلَهِ مُوسَى وإِنِي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧] .

أما معنى السبب بقصد كونه عاملاً فاعلاً يؤدي إلى نتيجة ما فقد ورد بدلالة حروف الباء واللام والفاء. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]، أي ان وكزة موسى للمصري كانت سببا في قتله. ويقول تعالى ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ [٨: لأنعام]؛ ﴿ وَأَوحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَن اضْرِبْ عَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [١٦٠: الأعراف] ؛ ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [١٢١ :طه]؛ ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً﴾ [١٠٢: النساء] ؛ ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [٥:يوسف]؛ ففي هذه الآيات علاقة واضحة بين السبب والنتيجة، ومن أمثلة الارتباطات السببيَّة في الظواهر الطبيعية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [٥٧: الأعراف]. تبين هذه الآية أن نزول الماء كان بسبب السحاب، وخروج النبات كان بسبب الماء. وكذلك قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن اللهَ أنزلَ من السّماءِ ماء فتصبحُ الأرضُ مُخضرّةً﴾ [٦٣:الحج]، ونحو: ﴿فتلقّى آدمُ من ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ﴾ [٣٧:البقرة]، والثاني نحو: ﴿لآكلونَ من شجرٍ من زقّومٍ فمالئونَ منها البطونَ فشاربُونَ عليهِ من الحميمِ﴾ [٥٢: الواقعة].

إذن فإن القرآن يقرر العلاقات السببيَّة في الأمور العامة، فلا يوجد شيء إلا بوجود سببه، والآيات التي تنفي السببيَّة ظاهرياً، إنما تنفي ذاتية السببيَّة واستقلالها عن الله تعالى، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ* أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾

[الواقعة:٥٨-٥٩]؛ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ* لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [٦٣-٦٥: الواقعة]؛ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ* لَوْ نَشَاءُ جعلناه أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾* [٦٨-٧٢:الواقعة]، ﴿إِنمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾ [٨٢: يس].

فالآيات السابقة تؤكد السببيَّة وتزكِّي الأخذ بالأسباب، وتُبين أن هنالك فعلين؛ فعل من الله يخلق فيه الأسباب، وفعل من الإنسان للأخذ بهذه الأسباب التي خلقها الله وجعلها للإنسان وسيلةً للوصول إلى المقصود، جعلها الله أسباباً بمحض إرادته وربط بينها، فالآيات التي تشير إلى السببيَّة هي ذاتها التي تنفي السببيَّة الذاتية والحتمية، وتؤكد على عدم استقلال الأسباب عن الله تعالى وقيَوميَّة الله على العالم، ويكون المراد من نفي السبب: نفي تأثيره بنفسه وحتميته، ويكون إثبات السبب تعليم للنواميس والسنن التي أجرى الله الكون على اتباعها بأمره، ويقع تأثيرها بإذنه، كما قال الله سبحانه حكاية عن عيسى -عليه السلام- : ﴿وَرَسُلًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾

وقد أمر رسول الله -صللى الله عليه وسلم- بالأخذ بالأسباب، التي أقام الله عليها نظام الكون وأجرى بها سنته، التي يعرفها المسلمون **بالسنن الكونية**، ومضت بها أقداره سبحانه.

ومن أدلة ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:"جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله؛ أدعها وأتوكل؟ أو أرسلها وأتوكل؟ فقال صلوات الله عليه: "أعقلها وتوكل"[١]. ومثل قوله صلوات الله وسلامه عليه في صحيح مسلم: "لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ". لاحظ قوله صلى الله عليه وسلم: "بإذن الله" أي إن فعل الدواء لن يتحقق إلا بأمر الله، ومن ثمَّ لن يكون الدواء مطبوعا على فعل الشفاء بذاته. ومثل هذا الحديث ورد في مسند أحمد وسنن أبي داوود وابن ماجة.

وخلاصة القول في موقف القرآن الكريم والسنة النبوية من مسألة السببية ووجود الأسباب أن العلاقات السببية جزء أساسي من بنية الكون في الأحوال العامة وأن الشذوذ عن هذه القاعدة لا يحصل إلا نادراً حين تقع المعجزة، وحتى حينما يريد الله -سبحانه- أن تقع المعجزة فإن الله يجعل لها سبباً ولو شكلياً، ليتخذه من أكرمه الله بالمعجزة وأيده

(١) رواه الترمذي،٢٥١٧

بها، فالله عزَّ وجل خلق الكون على نظام السببيَّة، فلما أراد أن يكون البحر طريقاً يبساً لم يجعله طريقاً يبساً إلا بسبب، قال تعالى:﴿أن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء ٦٣]، ضرب موسى البحر بالعصا فصار طريقاً يبساً، فوُجد الطَود، وتيسر لموسى وقومه عبور البحر.

وعندما أراد الله –سبحانه– أن يولَدَ عيسى –عليه السلام من أم ومن غير أب، ليكون آية منه، أرسل الملك فنفخ الروح في مريم، وأُمرت مريم وهي تُعاني شدة المخاضِ وآلامه أن تَهُزَّ جذع النخلة، إمضاءً لسُنة الله الكونية في الأخذ بالأسباب، وبياناً للمنهج الذي رسمه الله للكون، وطمأنة للنفس البشرية الضعيفة، التي تتقوى بالتوكل على ربها والثقة به، فقال سبحانه: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم ٢٥]

فربنا عزَّ وجلَّ حينما يريد أن نصنع شيئاً بفعله مباشرةً يجعله بسببٍ جعليّ من قبل الله، أي إن الله عز وجل خلقه وجعله لنا واسطة ووسيلة للوصول للأثر أو النتيجة المترتبة عليه.

وبالاستناد إلى مبدأ السببيَّة، يقوم أحد أوجه الاستدلال على وجود الخالق، فحيث إن لكل حادث سبب يسبقه ويؤدي إليه، بحيث تقوم علاقات سببية في كل ما يحدث في العالم من ظواهر ووقائع وحوادث، فلابد أن نصل بكل حادثٍ إلى سبب فاعل سابقٍ له، فنصل إلى السبب المادي، الذي لابد أن يسبقه سبب مغاير، لا يتوقف على سبب، ولا يفتقر إلى فاعل، لاستحالة التسلسل في الفاعلين إلى مالا نهاية، فيثبت بذلك افتقار الموجودات إلى موجدٍ غني عن الأسباب، يغير ولا يتغير، مفارق لهذه الموجودات الحادثة.

يقول ابن تيمية –رحمه الله–: «إن كل شيء وكل متحرك وإن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى، كما يقولون: لها علتان فاعلية وغائية... فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علةً فاعلية ولا غائية؛ إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات[١].

وعلل ابن تيمية ذلك بأن الشيء الواحد من المخلوقات لايخلو من نوعين من النقص، فالأول: أنه وإن كان علةً لشيءٍ، فسيكون علةً ناقصة، والثاني: أنه لابد أن ستكون له علةٌ تؤثر فيه فعلًا أو غاية، قال –رحمه الله–: "وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة؛ إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء،

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جامع الرسائل، تحقيق/ محمد رشاد سالم، دار العطاء – ١٤٢٢هـ – (٢٠٠١م، ص ٢٠٨.

فالمخلوقات باسرها يجتمع فيها هذان النَّقصان، أحدهما: أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة، لا فاعلية ولا غائية. والثاني: أن ما كان فيها علةً، فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية»[1].

وتوجه الرؤية الإسلامية أنظار المؤمنين إلى أن ثبات الأسباب واضطراد نتائجها هو من تقدير الله لها ذلك، وهو من آليات الله تعالى في الخلق، بأن أودع فيه قوانين منضبطة، حتمية التأثير، هي مايعرف **بالسنن الكونية**، جعل الله –سبحانه– ثبات قوانينها، بحكمته عوناً للإنسان على وظيفته، وسر وجوده وخلافته في هذا الأرض، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣] وإلا فما الحكمة من خلافة الإنسان في كونٍ لا يتبع فيه قوانين ثابتة، وإنما يدبره الله –جل وعلا– بالأمر المباشر![2]، بل جعل الله الإنسان خليفةً في الأرض، وحمله الأمانة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وهداه إلى كثير من السنن الكونية التي تعينه على حمل الأمانة، قال –تعالى– : ﴿إِنَّا عرَضنَا الأمانَةَ على السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ والْجبالِ فأبيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] ، ووعد الله –سبحانه– عباده بأن يكشف لهم من هذه السنن على مر الزمان بهم ما يزيدهم إيماناً به، وإدراكا لصدق رسالاته إليهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِم ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يكفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]. والحمد لله أولا وآخرًا.

(١) السابق: ص ٢١٠

(٢) ينظر: شريف، د/عمرو، كأنك تراه "إتك بالواد المقدس"، القاهرة، نيو بوك للنشر والتوزيع، ٢٠٢١، ص ٤٣.

ثبت المراجع:

المراجع العربية:

- البازي، بلال، **مفهوما السببية والحتمية بين ابن رشد واسبينوزا**، دورية تبين للدراسات الفكرية والثقافية، الدوحة–قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٣٢، ٢٠٢٠م.
- بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، **البحر المحيط**، الكويت، مطبعة وزارة الشؤون الإسلامية الكويتية، ١٩٩٢.
- بلكا، إلياس، **الوجود بين السببية والنظام دراسة في الأساس الشرعي والفلسفي لاستشراف المستقبل**، الولايات المتحدة الأمريكية– فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٢٩–٢٠٠٩م.
- أبو حامد الغزالي، **المستصفى من علم أصول الدين**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧.
- التهانوي، محمد بن علي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق/علي دحروج، دار لبنان ناشرون، ١٩٩٦.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **جامع الرسائل**، تحقيق/ محمد رشاد سالم، دار العطاء – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، لبنان– بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.
- حسام الدين الآلوسي، **مدخل إلى الفلسفة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.
- الخولي، د/يمنى، **العلم والاغتراب والحرية، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ٢٠١٩.
- الخولي، د/يمنى: **فلسفة العلم في القرن العشرين**، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤.
- زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٧٨.
- شريف، د/عمرو، **الإلحاد مشكلة نفسية**، القاهرة، نيوبوك، ١٧٣٧–٢٠١٦.
- شريف، د/عمرو، **كأنك تراه "إنك بالواد المقدس"**، القاهرة، نيو بوك للنشر والتوزيع، ٢٠٢١.
- صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.
- الطائي، محمد باسل، **مدخل إلى علم الفلك**، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٣.

- الطائي، د/محمد باسل وآخران، **مفهوم السببيَّة في الفيزياء المعاصرة وعند المتكلمين المسلمين**، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، الأردن، ، ١٤٣٣هـ /٢٠١٢م، مجلد ٨، عدد ٢أ.
- عبد السلام بن ميس، **السببية في الفيزياء الكلاسيكية والنسبانية: دراسة إبستمولوجية**، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٤.
- العراقي، محمد عاطف ، **تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦(ط٣).
- الكفوي، أبو البقاء الحنفي أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، لبنان– بيروت، مؤسسة الرسالة، دت.
- ابن مسكويه، احمد بن محمد ، **الهوامل والشوامل: سؤالات أبو حيان التوحيدي لأبي علي مسكويَّه**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.
- ابن منظور، جمال الدين ابي الفضل محمد بن مكرم ، **لسان العرب**، تحقيق: عامر احمد حيدر ومراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار صادر٢٠٠٣.
- مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**، مصر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣.
- محمد سعيد رمضان البوطي، **كبرى اليقينيات الكبرى**. دمشق، دار الفكر، ١٩٩٧.
- النشار، علي سامي، **المنطق الصوري: منذ ارسطو حتى عصورنا الحاضرة**، مصر– الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط٥، ١٩٦٦.
- ابن النفيس، علاء الدين (٦٨٧هـ)، **شرح الوريقات في المنطق**، تحقيق/أحمد فريد المزيدي.

المراجع الأجنبية:

- Pierre Simon, Laplace, A Philosophical Essay on Probabilities, translated from the ٦th French edition by Frederick Wilson Truscott and Frederick Lincoln Emory, Dover Publications New York, ١٩٥١ (On the site of: Google.com\books)